صور القيامة فى أدب محمد

(١)

لأحاديث الرسول عن اليوم الآخر وما أعقبه من جنة ونار ، أهمية بالغة فى الدراسات الأدبية المقارنة ، لأن العربية لم تعرف قبل القرآن وصفًا كاشفًا لليوم الآخر ، وما يتخلله من حساب وميزان ، وصراط ، ثم ما يترتب على ذلك من نعيم وعذاب ! وجاء الحديث النبوى ليوضح ما أجمل القرآن ، وليسهب فى ذكر اليوم الآخر إسهابًا يقربه من العقول ، ويجعله حقيقة واقعة لدى قوم ينكرون البعث ويقولون فيما حكى عنهم القرآن : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾[1] .

كان على رسول الله مع هذا الإنكار الجاحد أن يجعل من قضية البعث مجالاً للتأكيد والتثبيت ، ومن وسائل ذلك : أن يستعرض مواقف القيامة موقفًا موقفًا يبدأ من النفخ فى الصور ، وينتهى بوصف مقاعد الجنة ومهاوى النار ! ولابد أن يكون لهذا الاستعراض أدواته البيانية من وضوح الفكرة ، وإبرازها فى صورة رائعة مؤثرة، وإجادة تصوير الموقف المنتظر وتوشيته بأزهى الألوان والأصباغ مما ألهمه نبى الإسلام بإعداد الله وتوجيهه ، لذلك .. جاءت الثروة النبوية من حديث القيامة قيمة جزيلة النفع !! وقد تأثر بها الأدب العالمى فى أوروبا تأثرًا أصبح موضع الاعتراف دون إنكار ، (فدانتى) حين تحدث فى « الكوميديا الإلهية » عن الجحيم قد أتى بصور إسلامية لا تعرفها المسيحية ، وإنما تلوح مصادرها فى آيات القرآن

---

(١) سورة الصافات : ١٦ - ١٩ .

وأحاديث محمد ، كما سنعرض لذلك بالتفصيل فى الفصل القادم ، (وملتون) حين وصف نعيم الجنة فى الفردوس المفقود ، إنما استلهم القرآن والحديث فى بعض ما نظم ! وعجيب جدًّا أن تحدث مشاهد القيامة فى القرآن والحديث هذا الأثر العالمى ، ثم نجد أحاديث الرسول عنها فى المكتبة العربية تقبع فى حيز ضيق لا يجد المجال من الكتاب للتشريح والتحليل ، وهى من قوة التصوير وعمق الإدراك ، وإثارة العاطفة بحيث استطاعت أن تترك الأدب العربى ، وتطير إلى أبعد الآفاق !

أجل ، لقد وجد لدينا من الأدباء من استغل أحاديث القيامة فى إنتاجه الفنى (كأبى العلاء المعرى) حين أبدع « رسالة الغفران » فتحدث عن جبال الذهب فى الجنة ، وحياض العسل فى الفردوس ، وعن الحور العين فى هيئة الأوز ثم عن شجرة الزقوم وخزنة جهنم بما سنشير إليه قريبًا ! وكان الشاعر الفيلسوف أول أديب عربى استلهم الآثار الدينية فى إبداع رحلة خيالية تحلق فى آفاق اليوم الآخر ، ثم كتب لرسالته الخلود فترجمت إلى اللغات المختلفة وصارت مصدرًا حيًّا من مصادر الأدب والفن ، ولا يهمنا أن نذكر أن المصدر الأول لرسالة الغفران كان الآثار الدينية الإسلامية من قرآن وحديث ! ولقد أفردت كتب خاصة لحديث القيامة فى القرآن ، فلابد أن نعقد فصلاً كاشفًا هنا لتوضيح حديث القيامة فى آثار الرسول العظيم !!

على أننا حين نقرر أن محمدًا ﷺ كان أول إنسان أضاف للأدب العربى صورًا مؤثرة نافذة عن عالم غيبى ، لم يكن الجاهليون على دراية شىء منه ، إنما نقرر أنه بما أضاف للأدب من هذه الصور الجديدة قد أعطى الدليل على نبوته الصادقة ! وإلا فكيف استطاع هذا الأمى الناشئ فى الجزيرة العربية أن يصف أشهى منازل الترف فى الجنة من قصور عالية ، وحياض مترعة ، وحور ناعمة وحدائق نضيرة ، وسندس وحرير ، واستبرق وولدان مخلدين ، وأنهار من عسل مصفى ومن خمر لذة للشاربين، كيف استطاع أن يصور ذلك كإنسان لأول مرة فى الأدب العربى ،

ونقول كإنسان ، لأننا نعلم فضل القرآن فى الحديث عن مشاهد القيامة ! فلابد أن نذكر أنه كان أول أثر فى العربية فتح العيون على آفاق واسعة من عالم الغيب ، وإنها لآفاق تظل على تكرار آياتها وسورها ذات بهجة ونشوة وإمتاع !

لم يكتف القرآن برسم المناظر المحسوسة ، ولكنه أضاف إليها مشاهد الحوار والجدل والنقاش فى الجنة والنار ، فساعد على إكمال صور حية تجيش بالحركة ، والخصام والجدل ، وتقف بالقارئ على صورة حقيقية لما سيكون ، إذ يرى المشهد المؤثر ، ويسمع الرد المحتدم ، والجواب الثاقب ، ثم يصل إلى العاقبة الهائلة حين يرى المتخاصمين قد كبكبوا فى نار جهنم ! ويطول بنا المقام إذ نعرض بعض مشاهد القرآن فى فصل يتحدث عن مشاهد الحديث ، ولكننا نستشهد بمنظر قرآنى واحد لأهل النار ، نعده تمهيدًا كاشفًا لما سيجىء من مشاهد القيامة فى أدب الرسول .

إن الكافرين ليحشرون فى جهنم أفواجًا خلف أفواج ، وإن القادمين لينظرون إلى المقيمين فى تلدد وغيظ ، إذ كانوا مصدر نكبتهم حين أغروهم بالكفر وصدوهم عن الإيمان ! وإن النظرات لتتبادل فى غيظ محنق ، وإن النقاش ليحتدم فى كراهية ، ولدد ، وإن القرآن ليبدع فى تصوير ذلك حين يقول : ﴿ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾[1] .

هذا النمط المعجز من الوحى الإلهى ، قد سار البيان المبدع من القول المحمدى على هديه ، فجاء بكثير من الصور الزاهية ، والمشاهد الرائعة ليوم الآجلة ! وقد يستكثر بعض الناس وفرة ما روته كتب السنة عن الرسول فى ذلك ، وهو استكثار

(١) سورة ص : ٥٩ - ٦٤ .

فى غير موضعه ! لأن قضية البعث قضية أساسية فى الدعوة الإسلامية ، ولن تقتنع بها العقول المغلقة فى سهولة ويسر ، فلابد من إكثار الحديث عنها بإفاضة واستيفاء ! وقد قامت الشريعة الإسلامية على أساس الجزاء من ثواب وعقاب فى الدار الآخرة! وإنها فى معتقد الجاهلين ممن لا يؤمنون بالبعث خيال منكر ، فلا مناص إذًا من أن يكثر نبى الإسلام من حديث القيامة ما استطاع ، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين ! وقد نلاحظ تكرارًا لبعض المشاهد فى الحديث بحيث يأتى المشهد الواحد بعبارات مختلفة ، وهذا شىء توجبه حقيقة الدعوة وتحتمه رسالتها الخطيرة ، لأن الرسول قد يتحدث عن المشهد المثير لقوم ، ويجىء آخرون فيحدثهم بما سبق أن قاله آنفًا ليستوى المسلمون فى الإبلاغ ! فتكرار الحديث عن المشهد الواحد مما تحتمه كبيعة الدعوة لا مراء ! وإذا كان المتحدث بشرًا له إدراكه المحدود مهما كان قويًّا بالغ القوة بالنسبة إلى الرسول ، فإنه لا يستطيع أن يعيد المشهد بحروفه وألفاظه كما سبق أن حكاه ، فلابد من اختلاف فى التعبير من المحافظة على اللباب ! وسنعرض الآن صورًا من مشاهد القيامة فى الحديث محاولين أن تكون متساوقة مطردة السياق، جارية مع الزمن تقديمًا وتأخيرًا ، لأن كثيرًا من رواة السنة فى الكتب الصحاح قد بعثروا أحاديث القيامة فى مئات الصفحات خضوعًا لأمور لا تتصل بالترتيب الفنى للأحداث ، فربما ذكر فى أبواب العبادات – مثلاً – ما يدل على الميزان والصراط ؛ لأن المؤلف قد راعى الموضع الفقهى فى كلمة من الحديث دون غيره ! ولا عليه فى ذلك ، ولكننا الآن نستعرض صورًا أدبية لمشاهد حية مؤثرة فنلتزم التسلسل الزمنى ما أمكن !

يبدأ اليوم الآخر بالنفخ فى الصور ، وقد أكثر محمد ﷺ من الحديث عنه ، ونحن نكتفى هنا بمثل قوله عن أبى سعيد الخدرى : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، واستمع الآن متى يؤمر بالنفخ فينفخ »[1] أرأيت إلى هذا القول

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٨٣.

الموجز وما يحمل من صور مثيرة ، إن المعنى الأصلى الذى يقصد إليه الرسول هو أن موعد الساعة قريب ، فهو تأكيد لقوله ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار إلى سبابتيه ، ولكن هذا المعنى الأصلى البسيط قد رسم أجمل رسم أدبى فى موقف إسرافيل وقد التقم البوق قابضًا عليه بفمه ، كأنه يريد أن يأكله ، ثم أخذ يلقى بأذنه إلى السماء منتظرًا الأمر بالنفخ كأنه سيصدر وشيكًا بين آونة وأخرى وهو على أتم أهبة واستعداد للتنفيذ ، فأى تصوير لقرب الساعة ودنو موعدها يبلغ مبلغ هذا القول .

فإذا وقع النفخ فهناك مشهد جديد صوره نبى الإسلام حين قال عن عبد الله ابن عمر :

« ينفخ فى الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا ، وأول من يسمعه رجل يلوط إبله ، فيصعق الناس ، ثم يرسل الله مطرًا كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس ، هلم إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار ، فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فذلك يوم يجعل الولدان شيبًا »[1] .

أسطر ضئيلة تشير إلى عدة مشاهد ، رجل يفجأ بالصوت ، فيصغى ليتا ويرفع ليتا أى أنه يهش مضطربًا وجلاً ثم يصعق . ورجل يشغل بحوض يعده لإبله فيفاجأ بما يأخذ عليه حياته فيخر صعقًا ، ومطر يتساقط رذاذًا كالطل تنبت به الأجساد لتنهض عنه النفخة الأخرى . ثم يأتى بعد النار من كل ألف لا نجد غير واحد غير خائف . أما الموقف نفسه فيجعل الوالدان شيبًا .

فإذا تركنا النفخ متابعين الأحداث المترقبة فى تسلسلها المعقول ، فإننا ننتقل إلى الحشر ، وما أكثر ما تحدث الرسول عن حشر الناس حفاة عراة كما بدأ الله أول خلق يعيده ! وقد تساءلت عائشة عن العراء فى الحشر نساء ورجالاً فقال النبى فى رواية

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٨٤.

البخارى : يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض ، وإذ ذاك تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده ، كما يكفأ أحدكم خبزته فى السفر [1] ، ثم يطوى الله السموات ، ويأخذهن بيده اليمنى والأرضين ويأخذهن بشماله ، يقول الرسول ذلك وهو يحرك يديه خائفًا وجلاً حتى ظن ابن عمر أن المنبر يتحرك برسول الله [2] أما الموقف نفسه ، فقد قال فيه رسول الله عن ابن عمر :

« تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا ، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه » [3] .

أرأيت بحرًا يعوم فيه الناس ، وقد اختلف ارتفاع موجه صعودًا وهبوطًا وفق ما قدمه السابحون ، فمن واقف فى الماء إلى كعبيه ، ومن غائص إلى ركبتيه أو خصره، ومن ملجم لا يجد من العرق متنفسًا . إذ يلجمه الماء إلجامًا . وحرارة الشمس اللاهبة فوق الرءوس دانية بشواظها اللفاح . أى موقف هذا الذى صوره البيان فى أقرب لفظ وأيسره دون افتعال !

أما أحاديث الشفاعة ، فما أروعها وما أشد تأثيرها ! كل حديث يمثل قصة شائقة ذات عرض وحوار وأحداث ، وقد تكررت فى كتب الأحاديث كما تكررت قصص الأنبياء فى القرآن ، لكل قصة مساق خاص ومغزى خاص ، وهدف خاص وإن ظن الغافل أنه حديث معاد .. وإذا كان المسرح لأحاديث الشفاعة هو ساحة العرض فما أهوله مسرحًا تزيغ به الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر ! فهو فى حاجة إلى متحدث بليغ ينقله بألوان معبرة من الحروف والكلمات لا تتاح لغير مبين قدير ،

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٨٨.

(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٨٩.

(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٩٠.

وإن مشاهده لتتراءى فى مخيلتك حين تقرأ أن الناس جزعون زائغون تائهون يبحثون عن آدم ، فيقولون : أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده ونفخ من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول آدم : لست هناكم. ويذكر خطيئته فيستحى ربه منها ثم يشير عليهم أن يأتوا نوحًا.

فتفر الجموع إلى نوح هلعة متوسلة فيقول ما قال آدم لست هناكم ، ويذكر دعوته التى قال فيها رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا ، ثم يشير عليهم أن يذهبوا إلى إبراهيم .

فيتكرر المنظر ويسرعون إلى خليل الرحمن إبراهيم ، فيقول : لست هناكم ، عليكم بموسى :

ويتوالى الذهاب إلى موسى فيعتذر ويشير إلى عيسى ، فيقصدونه فيقول عليكم بمحمد فيأتون خاتم المرسلين باكين صارخين ، قال محمد فى حديثه : « فأستأذن على ربى فيؤذن لى ، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدًا فيدعنى ما شاء الله ، فيقال : يا محمد ، قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسى ، فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لى حدًّا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجدًا فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال لى : ارفع يا محمد ، قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حدًّا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، قال : فأقول : يا رب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن أى وجب عليه الخلود »[1] .

ولقد اقتضبنا الحديث السابق باقتطاف نماذج من حواره الحائر بين الخلق والأنبياء . ولن تكمل البراعة الفنية لأثر أدبى إلا إذا سجل دون اقتضاب ، وأخالنا لا نعد كثيرًا على باحث يشخص أدب الرسول تشخيصًا أدبيًّا أن يذكر نصًّا كاملاً من نصوصه فى رسالة طويلة تتعمد بيانه النبوى بالتشريح والتحليل ، مهما طال

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٢.

الحديث . إن الذى يتحدث عن شاعر (كعمرو بن كلثوم) يذكر معلقته الطويلة دون حرج أفتكون معلقة عمرو بن كلثوم أو سواه أثقل فى ميزان الأدب من حديث نبوى يرسم مشاهد الحشر الأخروى حتى نتحيفه بالاقتضاب . لننقل هنا النص النبوى على طوله النسبى ، ففى ترتيبه المسلسل ، وصوره المتلاحقة وألفاظه المعبرة ما يقدم لنا وثيقة صحيحة من وثائق الوصف النبوى حين يتسع المجال فيتدفق الينبوع .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ناسًا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : نعم . ثم قال : هل تضارون من رؤية الشمس بالظهيرة صحوًا ليس معها سحاب ؟ وهل تضارون رؤية القمر ليلة البدر صحوًا ليس فيها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : ما تضارون من رؤية الله تعالى يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما ، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد ، كان يعبد غير الله تعالى من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون فى النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب ، فتدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار ، كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا ، فيتساقطون فى النار ، ثم يدعى النصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فيقال لهم : ماذا تبتغون ؟ فيقولون : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، قال فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا ، فيتساقطون فى النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه فى أدنى صورة من التى رأوه فيها ، قال : فماذا تنظرون ؟ نتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا : يا ربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم فيقول : أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله لا نشرك بالله شيئًا مرتين أو ثلاثًا حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ، فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق فلا

يبقى من كان يسجده إلا جعل ظهره طبقة واحدة . كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول فى صورته التى رأوها فى أول مرة ، فقال : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا ، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون : اللهم سلم سلم ، قيل : يا رسول الله ، وما الجسر ؟ قال دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة ، يقال لها : السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس فى نار جهنم حتى إذا خلص المؤمن من النار فوالذى نفسى بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار ، يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى كبته ثم يقولون : ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا ، فيقول: ارجعوا ، فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقًا كثيرًا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها أحدًا مما أمرتنا به ، ثم يقول : ارجعوا ، فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقًا كثيرًا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيرًا – وكان أبو سعيد الخدرى يقول : إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرأوا إن شئتم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] – فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة ، وشفعت النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط ، عادوا حممًا فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ، ما يكون إلى الشمس أصيفر أو أخيصر ، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض ، فقالوا : يا رسول الله ، كأنك كنت

(١) سورة النساء : ٤٠ .

ترعى بالبادية ، قال : فيخرجون كلؤلؤة فى رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة ، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ، فيقولون : ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين ، فيقول : لكم عندى أفضل من هذا ، فيقولون : يا ربنا أى شىء أفضل من هذا . فيقول : رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا » رواه الشيخان [1] .

ما الذى نراه فى هذا السرد الأدبى الشائق يبتدئ بالسؤال الواضح ، هل تضارون فى رؤية الشمس بالظهيرة صحوًا ليس معها سحاب ؟ هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر صحوًا ليس فيها سحاب . ما تضارون فى رؤية الله تعالى إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما ؟ أليس التصوير التمثيلى هنا أدل على المراد وأهدى إلى قرب إمكانه وتحقق وقوعه دون اعتراض ، وهذا أحد ما يهتم به البيانيون !

ثم ما هذا الحوار المفحم بين عبدة غير الله ؟ وكيف عبر عن معانٍ كثيرة بألفاظ معدودات ، ثم انتهى بهؤلاء إلى جهنم وكأنها سراب يحطم بعضها بعضًا ؟ أليست هذه صورة جميلة تذكرنا بقول الله تعالى عنها : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾[2] وكلتا الصورتين تنطق باحتدام اللهيب !

والجسر ما صفته . وماذا يعترضه من الأهوال ، وما حال العابرين على اختلاف منازلهم على الصراط ؟ ألم يتكفل الحديث بتصوير ذلك أبدع تصوير حين قال عنه دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل ، والركاب ، فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس فى نار جهنم ، أهناك وصف للصراط أبلغ مما قال نبينا محمد ؟ وقد تحدث عنه فى أقل من ثلاثة أسطر حديثًا يرج النفس بأهواله الثقال !

* * *

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٠.

(٢) سورة الملك : ٨ .

(٢)

أما رحمة الله فقد تجلت فى هذا الحوار البديع ، بين الله وعباده بشأن المعذبين حين أخرجوا من كان فى قلبه مثقال دينار أو نصف مثقال ذرة من خير ، وحين أخرجوا بعض من لم يعملوا خيرًا بالمرة ، وقد صاروا حممًا فحين قذفوا فى نهر الحياة خرجوا كما تخرج الحبة فى حميل السيل ، ثم أصبحوا كاللؤلؤة فى رقابهم الخواتيم وهم عتقاء الله من النار ، أما وصف النبى محمد لحبة السيل من خضراء وصفراء وبيضاء فكان موضع العجب من السامعين حتى سألوه فى دهشة : كأنك كنت ترعى بالبادية ! أليس الحديث على طوله النسبى صورة فنية رائعة تحدر بها لسان أديب مطبوع ! ثم أليس هؤلاء الذين نقلوا بعض صوره الخالدة إلى قصصهم الفنى فى الشرق والغرب معذورين حين وردوا أعذب مورد من البيان الرفيع ؟

فإذا انتهى الموقف ، وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين . قدم لنا الأدب النبوى فى وصف الجنة والنار ما لا يسبقه فى دنيا البيان غير وصف القرآن الكريم ! وقد تحدث الرسول عن كلتيهما بإسهاب شاف واف ، وحديث الرسول عن دار الثواب ودار العقاب مما يجب أن يتكرر فى عظاته دون ملال ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى صدر هذا البحث ، ولكن البراعة أن يضطر الرسول إلى إعادة ما قال ، فما يسأم كما يسأم المعيدون . بل يحاول أن يظهر حديثه المعاد فى ثوب بيانى جديد ، ليضيف بعض الطريف منه إلى تليد ما قال ، والإنسان منا يتضايق عادة حين يضطر إلى إعادة خطبة قالها أو صياغة مقال سبق أن نشره إذ يشعر فى أعماقه أن السامع فى موقف الخطبة ، والقارئ فى مجال المقالة سيتفقد الجديد دون أن يعثر عليه، ولكن الداعية المبين يجد من أدوات البيان لديه ما يذهب عنه التضايق ، فيعرض الحديث فى ثوب أقشب وأبهج ، هكذا جاء المتكرر من أحاديث الجنة والنار فى بيان خاتم الأنبياء .

نسمع أن بالجنة « ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] هذه العبارة الذائعة الشائعة أثر من آثار الرسول ﷺ فى وصف الجنة ، وقد سارت مسير المثل شهرة واستضافة ، وهى على قلة ألفاظها لا تدع فى النفس بعدها للمؤمن من مأمل ، فكل ما أمكن أن يتخيله التصور الإنسانى من نعيم ومتعة يندرج تحتها لا محالة ، وذلك بعض ما يعطيه الأدب البليغ إذ يشبع النفس امتلاء وارتواء بألفاظ معدودات ، وللرسول فى ذلك مشابه كثيرة ، ومنها فى وصف الجنة أيضًا هذا الحديث المعبر ! « لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت »[2] إن الشمس لتطلع وتغرب على الدنيا جميعًا بما تحوى من فنون البهجة والإمتاع ، وكل ما يتطلب .

وإن كل مستمع من الناس لا محالة مأخوذة ببعض ما رآه وشاهده فى الحياة ! فإذا كان قاب قوس فقط فى الجنة خيرًا مما طلعت عليه الشمس أو غربت ! فأى دهشة تستولى عليه وهو يعد من طيبات الحياة أفانين وأفانين !!

أما بناؤها وحصباؤها وترابها ، فقد سأل أبو هريرة رسول الله عن ذلك كله ، فقال من حديث وصفى رائع :

« بناؤها لبنة من فضة ، ولبنة من ذهب ، وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران » . ثم أعقب ذلك بقوله : « من دخلها ينعم ولا يبؤس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم »[3] أما درجاتهم فكما قال الرسول فى حديث آخر : « فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العرش ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس »[4] .. أما متعة العين والشم والإحساس فكما قال عنها

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٥.
(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٦.
(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٧.
(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٧.

الحديث النبوى « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى العابر فى الأفق من المشرق أو المغرب » [١] وإن فى الجنة لسوقًا يتأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسنًا وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم حسنًا وجمالاً ، فيقولون : وأنتم والله قد ازددتم حسنًا وجمالاً [٢] كما أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا بفضل أعمالهم ، ثم يؤذن فى مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون ربهم ، ويبرز لهم على عرشه ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة ، فتوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنبر من فضة ، ويجلس أدناهم وما فيهم من دنىء على كثبان المسك والكافور ، وما يرون أن أصحاب الكراسى بأفضل منهم مجلسًا [٣] ، أما غيد الجنة فإن فيها « لمجتمعًا من الحور العين يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها تُقلن : نحن الخالدات فلا نبيذ ، ونحن الناعمات فلا نبؤس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، وإن الغادة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة ، حتى يرى مخها وذلك بأن الله يقول : « كأنهم الياقوت والمرجان » فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكًا ثم استصفيته لرأيته من ورائه ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحًا» [٤] .

إننا نسوق هذه الأوصاف النبوية لنقرر أنها جديدة فى الأدب العربى لم يهتف بها لسان قبل النبى محمد ! وإذا كنا نعد من معجزات الإسلام إتيانه بشريعة محكمة التنزيل ، صالحة لكل زمان ومكان على وجه لم يسبق ، فلماذا لا نعد من معجزات البيان العربى أن يفد القرآن والحديث عليه بصورة أدبية كانت عليه بمنأى بعيد ! إنا

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٣٣.
(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٣٣.
(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٣٣.
(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٤٠.

نذكر (امرأ القيس) فنعد من فضله البيان العربى أنه أول من بكى واستبكى ، ووصف المرأة بأنها بيضة خدر ! فأى شىء أوصاف المرأة فى شعر امرئ القيس إذا قيست بأوصاف المرأة فى الحديث عن الحور العين ! لقد رحل (الأعشى والنابغة) إلى بعض الملوك ووصفا مطارف النعيم لديهم ، فهل قال (النابعة) فى الخورنق وأبهائه وغرفه وجداوله ما يوازى ذرة مما جاء فى الأثر النبوى عن قصور الجنان ؟ إن المنابر من نور والكثبان من مسك ، وشفافية الحجرات بحيث يتراءى أهل الجنة مساكن رفقائهم ، وإن الريح والنور يطبقان ما بين الأرض والسماء كل ذلك صورة جديدة فى الأدب ! أفنغض الطرف عنها لنتتبع أمثال وبيضة خدر ، وصدر مثل حق العاج واهمين أن ذلك أبلغ ما قيل فى أدبنا القديم !

هذا كثير من قليل مما نضح به أدب محمد بن عبد الله من مطارف زاهية على البيان !

والنار ! هل نملك أعصابنا حين تسمع ما سطره الحديث النبوى عنها من الأهوال ؟

إنها فى وضعها الطبيعى كما تحدث عنها الرسول قد » أوقدت ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة [1] ، وإن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوى فيها سبعين عامًا ، وما تفضى إلى قرارها [2] ، وإن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخ يتواطؤه الناس ، وإن شفته العليا لتتقلص حتى تبلغ وسط رأسه، وتستر شفته السفلى حتى تضرب سرته [3] ! - أى هول هذا يا رباه ! وإن أهل النار يلقى عليهن الجوع فيعدل ما هو فيهم من العذاب فيستغيثون فيغاثون

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٥١.

(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٥٢.

(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٥٣.

بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيقولون : ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾[1] ، فيجىء مالك فيقولون له : ﴿ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ ﴾ فيجيبهم : ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ فيقولون لأنفسهم : ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ فيجيبهم : ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[2] .

هذه بعض أحاديث النار ، وما بنا أن نستطرد فنذكر شهادة أعضاء الجسم من يد ورجل وجوارح على الإنسان ، فذلك ما اشتهر بين الواعظين ! إنما نسرد ذلك عمدًا لنذكر أن المتحدثين عن الجحيم من أئمة الأدب العالمى قد استغلوه فراج لديهم ، وأصبح فنًّا عالميًّا ! بينما سكت مؤرخو الأدب العربى عن تقديره الصحيح ، بل إن كثيرًا منهم قد احتفل بمشاهد القيامة فى « رسالة الغفران » أكثر مما احتفل به فى حديث رسول الله ، وهو مع كتاب الله مصدر أبى العلاء دون نزاع !

على أن أبدع ما فى مشاهد الجنة والنار : حوار الله لعباده ، فقد عبر رسول الله عن أعمق المعانى النفسية بين البشر عن طريق حوار تعبيرًا لم يدع مزيدًا لمستزيد ، والحوار فن أدبى له أساتذته وأعلامه ، وهو فى مشاهد القيامة لقطات تصويرية بارعة تكتفى باللمح والرمز والكناية عن الكشف الواضح بالتصريح . وذلك ما

(١) سورة غافر : ٥٠ .

(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٥٦.

يكسب الموقف متعة وعمقًا ؛ لأن الحوار إذا تحدث عن كل شيء ولم يترك للقارئ أن يستشف ويستنتج فقد أوثق أمامه عالم التصور ، وقيد أساسه بالمنظور الملموس ، أما إذا مال إلى الإيماء والرمز فقد أعطى للقارئ الناضج مفتاحًا يلج منه عشرات الأبهاء ومئات الحجر ليرى فى كل زاوية ما يصوره خياله من لوامع وإيماض ! والأدب العالى فى أرفع أنماطه يعتمد كثيرًا على هذا الإيحاء الوامض ليقدم فى السطور القليلة عشرات الخواطر والمشاهد والأحاسيس ، وفق تصور القارئ ودرجته من التوضيح الذهنى والإشعاع التصويرى ! ولك أن تنظر إلى هذا المشهد الأخروى كما رسمه الرسول :

« عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ » قال : آخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشى مرة ويكبو مرة وتلسعه النار مرة ، فإذا جاوزها التفت إليها ، فقال : تبارك الذى نجانى منك ، لقد أعطانى الله شيئًا ما أعطاه للأولين والآخرين ، فترفعه له شجرة فيقول : أى رب أدننى من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها ، فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم . لعلى إن أعطيتكها سألتنى غيرها ، فيقول : لا يا رب ، ويعاهده ألا يسأله غيرها ، وربه يعذره ؛ لأنه يرى ما لا يصبر عليه ، فيدنيه منها ، فيستظل بظلها ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة هى أحسن من الأولى فيقول : أى رب أدننى من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها ، فيقول : يا ابن آدم ، ألم تعاهدنى ألا تسألنى غيرها ، لعلى إن أدنيتك منها تسألنى غيرها ، فيعاهده ألا يسأله غيرها ، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه ، فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هى أحسن من الأوليين ، فيقول : أى رب أدننى من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها ، وربه يعذره لأنه ما لا صبر له عليه فيدنيه منها ، فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة ، فيقول : أى رب ، أدخلنيها فيقول : يا ابن آدم ما يضيرنى منك ، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ، قال :

يا رب ، أتستهزئ منى وأنت رب العالمين ؟ فيقول : إنى لا أستهزئ منك ، ولكنى على كل شيء قادر» رواه مسلم [1] .

فهذا المشهد الرائع له أكثر من دلالات ، فمع دلالاته على سعة عفو الله ورحمته فإنه بحواره الجذاب يرمز إلى تجدد الآمال فى النفس البشرية ويعالج واقعًا محسوسًا لدى الإنسان فى كل عصر وفى كل مكان ، ألا يتمنى الإنسان شيئًا فإذا حققه صبا إلى ما فوقه ، فإذا حققه تجددت الصبوة إلى شيء آخر ، وهكذا نظل فى سباق مع الأمانى حتى تنفد الحياة . هذه الحقيقة الإنسانية الخالدة المتكررة قد أفصح عنها الحديث فكانت إحدى دلالاته الرمزية الكبيرة بمغزاها العريق ، أما اختيار الألفاظ لرسم المعانى فلا أبدع منها ولا أروع ! هذا الرجل الذى خرج من النار مستغيثًا صارخًا رأيناه يمشى مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة ، فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذى نجانى منك ! لقد أعطانى الله شيئًا ما أعطاه للأولين والآخرين ، ألا يذكرنا هذا بما نشاهد فى دوامة هذه الحياة إذ يخرج الإنسان من أحد مآزقه ، كمعركة حربية أو سجن حكومى أو استجواب فى محكمة ، فلا يكاد يصدق أنه خرج . فهو يلتفت ويكبو ويتعثر حتى إذا شم ريح الحرية فى الحياة الفسيحة عد نفسه ذا شأن كبير جدًّا بحريته التى ردت إليه ، فيقول : لقد أعطانى الله شيئًا ما أعطاه للأولين والآخرين ، أما تدرج الآمال من صغير إلى كبير إلى أكبر حتى تصل بصاحبها إلى منتهى الآمال فى الجنة ، فذلك ما أجاد الحديث النبوى تصويره ، فمن مبلغ عشاق الأدب الرفيع فى كل أمة وفى كل لغة أن لدينا من فرائد المشاهد الأدبية فى آثار محمد بن عبد الله ما نعجز أن نراه لدى المتنطسين من مشاهير الكتاب لعلهم يقرءون !

أما قصة جبريل مع الجنة والنار حين خلقها الله ، فمن أحسن ما تركه البيان النبوى من قصص ، حيث استطاع محمدٌ أن يومئ إيماءً قويًّا إلى ما يكتنف الجنة من

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٦٣.

مصاعب ثقيلة على النفس حين تفطم عن الشهوات وتقنع بالحلال اليسير ، ثم إلى ما يكتنف النار من مغريات جاذبة شهية لدى النفس حين تقبل على الملذات الوبيئة مستمرئة مستمتعة ! تلك معان دقيقة غاية الدقة ، ولكنها برزت لامعة واضحة فى قول نبى الإسلام :

« عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لما خلق الله الجنة والنار ، أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددته لأهلها ، فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع أحد بها إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، فرجع إليها ، فإذا هى قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خفت ألا يدخلها أحد ، قال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فذهب فإذا هى يركب بعضها بعضًا ! فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فنظرها ، فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها [1] .

إن بلاغة الإيماء فى هذا الأثر مع إيجازه الموحى لتتسع إلى صفحات كثيرة إن سيقت مساق الشرح والتفسير ! ولن تأتى الأقصوصة الهادفة فى سياق أحسن منها فى هذا السياق !

على أن لكل من أهل الجنة وأهل النار نهاية محتومة لا شىء بعدها ، فلابد أن يطمئنوا إلى مصيرهم الخالد نعيمًا أو جحيمًا ، فيعلموا أن كل إنسان قد أخذ مكانه ، وأنهم خالدون خالدون ، وأن الموت قد مات بعد الجنة والنار ! فلا خوف منه لفريق الجنة ولا راحة فيه لفريق السعير !! لم يتحدث الرسول عن ذلك حديثًا تقريريًّا فيما نعرض ، ولكن تحدث عنه حديثًا تصويريًّا فقال :

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٦٦.

« عن ابن عمر ، عن رسول الله : « إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، أتى بالموت فيوقف على السور الذى بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة فيطلعون خائفين ، ثم يقال يا أهل النار فيطلعون مستبشرين يرجون بالشفاعة ، فيقال لأهل الجنة وأهل النار ، هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : قد عرفناه ، وهو الموت الذى وكل بنا ، فيضجع فيذبح على السور الذى بين الجنة والنار ثم يقال : يا أهل الجنة خلود لا موت ، ويا أهل النار خلود لا موت . ثم قرأ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة مريم : ٣٩ ، « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٥٩.